العرب
الأحد 2020/04/05
السنة 42 العدد 11668

المراقبة كوسيلة للتآخي الكوني

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

إن ما يشهده العالم اليوم، في ظل الثورة الرقمية المذهلة، يفوق ما تخيّله جورج أورويل عام 1948، حين صوّر في روايته الاستباقية الديستوبية "1984" مجتمعا خاضعا للمراقبة والمعاقبة في الآن نفسه، أي أنه جمع بين عهدين، عهد الإقطاع والحكم المطلق، وعهد الأنظمة الحديثة. ومنذ صفحات الكتاب الأولى نقف على سلطة قاهرة متمثلة في حزب (هكذا يُطلَق عليه مجرّدًا من أيّ نعت أو إضافة) ينفّذ سياسة الأخ الأكبر، حاكم أوسيانيا الذي لا نعرف عنه إلا صوره المنتشرة في كل مكان، وأخبارا عمّا يتميز به من ثقة وقوة ورصانة، حتى أن البطل ونستون سميث يشك في وجوده.

> كان فوكو قد لاحظ منذ أواسط السبعينات في كتاب «المراقبة والمعاقبة» أن النظام التأديبي لم يعد يكتفي بالمنظومة السجنية، بل تعدّاه إلى مجمل المجتمع ذي الاقتصاد الرأسمالي.

هذه الرواية، التي كتبت عقب الحرب العالمية الثانية وما خلّفته من دمار، تصوّر عالما شموليا يُحظَر فيه الكلام والتفكير، وتُفرَض فيه لغة موحّدة "نيوسبيك" تتقلص مفرداتها إلى حدود دنيا يستحيل معها فرز الصواب من الخطأ، خصوصا أن الفرد مدعوّ إلى الإيمان بالشيء ونقضيه وتصديقهما معا في الوقت نفسه؛ كما تنعدم الحريات الفردية، حتى الحميم منها، ويُسحَق كل خارج عن الحزب سحقَ الحشرات، فلا حق للفرد في شيء عدا محبّة الحزب.

وبطلها "الأخ الأكبر" هو استعارة للشمولية المطلقة، ورمز للرقابة الدائمة، حيث أقام في أوسيانيا – وهي كتلة من عالم مقسّم إلى ثلاث كتل تقف في مواجهة أوراسيا وإستاسيا – نظاما يقسّم الشعب إلى ثلاث طبقات اجتماعية: الحزب الداخلي، ويمثل النخبة الحاكمة التي لا تتعدى نسبتها 2 في المئة، والحزب الخارجي، ويشمل عمّلة الطبقة الوسطى ونسبتها 13 في المئة، والبروليتاريا أو الطبقة الشغّيلة، وهي السواد الأعظم وتعُدّ في المئة. هو نظام يُخضع الناس أجمعين للمراقبة في كل آن عبر كاميرات لا يخلو منها مكان، وبوليس تفكير يتعقب المنفلتين من العقال لإدخالهم عنوة إلى حظيرة الحزب بالتعذيب وغسل الأدمغة، فلا حياة في أوسيانيا إلا لمن وعى خطاب الحزب وعمل به، ولا بقاء إلا للأخ الأكبر، ولا مجال في أوسيانيا إلا لمحبة الحزب وقائده الأعلى. فالحزب، كما قال أورويل نفسه، يريد السلطة لذاتها، ولا يهمه إسعاد الآخرين. "هو لا يريد ثراء ولا ترفا ولا طول عمر ولا سعادة. لا يريد إلا السلطة. السلطة الخالصة." وخلاصة ما توقعه أورويل منذ سنين: انتشار وسائل المراقبة الظاهر منها (كاميرات المراقبة التي لا تخلو منها مدينة من المدن في الدول المصنعة) والمقنّع (الإنترنت والفيسبوك)، التحكم في الجماهير من خلال الميديا، تزوير التاريخ، طغيان لغة عالمية وحيدة (الأنكلو أميركية والرسائل القصيرة عبر الهواتف الجوالة)، انحسار الحريات الفردية، فضلا عن ظهور أنظمة استبدادية مطلقة كما هي الحال اليوم في بلدان العالم الثالث، حيث القائد حاكم بأمره في المصائر والبصائر، وحيث يد السلطة تتوسّل بنشر الفقر وتعميم الجهل للمسك بخناق الشعوب.

ولكن أورويل لم يتوقّع أن تتقبل المجتمعات طوعا وسائل المراقبة "المقنّعة"، وتحرص عليها حرصها على المواد الضرورية التي تؤمّن البقاء، فقد استطاعت العولمة ابتكار مستحدثات تكنولوجية، يعتقد الفرد أنها جُعلت لخدمته، وتيسير حياته، وهو لا يعلم أنها أدوات للسيطرة على إرادته وتوجيه رغباته، لغايات ربحية بالأساس، إذ نجح رأس المال مرة أخرى في خلق نوع من الإحساس بالنقص لدى كل من لم يحز جهازا من الأجهزة المعروضة للاستهلاك. مثلما استطاعت الشركات العالمية العملاقة "غافا" (غوغل، أبل، فيسبوك، أمازون) أن تسيطر على الرقاب دون عنف أو إرغام، عن طريق المواقع الاجتماعية وشبكات التواصل عبر العالم، وأوجدت بذلك ما أسميناه في مقالة سابقة "الرق الإرادي الجديد" أو "العبودية الطوعية" بعبارة إتيان دو لا بويسي.

وكان فوكو قد لاحظ منذ أواسط السبعينات في كتاب "المراقبة والمعاقبة" أن النظام التأديبي لم يعد يكتفي بالمنظومة السجنية، بل تعدّاه إلى مجمل المجتمع ذي الاقتصاد الرأسمالي، الذي استجدت في أعطافه إدارة مخصوصة لتعدّد مظاهر الحيف وتشابكها، وأن التحول من المَلكية الاستبدادية إلى الأنظمة الحديثة لم يغيّر سوى آليات الهيمنة، فبعد أن كانت تقوم على القوة المباشرة، أصبحت قائمة على تنظيم العلاقات، كما أنها لم تعد تقنع بكونها القيّمة على القانون، المدافعة عن مجال ترابيّ محدد بوصفها دولة ذات سيادة، بل تعدّته إلى تنظيم حياة السكان وإدارة شؤونهم في شتى مجالات النشاط البشري، كراع يحرس قطيعه في الليل والنهار. ولكن العمر لم يطل بفوكو كي يكتشف هو أيضا أن المراقبة لم تعد محصورة في قطر واحد، بل أضحت كونية، وأن العلاقات بين البشر باتت تمرّ عبر الوسائل الرقمية التي تديرها شركات بعينها، أكثر مما تمرّ على أرض الواقع، وأن شركات "غافا" تغذي نرجسية الأفراد وحبّ الظهور لديهم عبر مواقع وتطبيقات وبرامج مغرية بشكل صاروا معه يجودون لها طوعا بخصوصياتهم، حتى الحميمة منها، عبر فيسبوك وإنستغرام وواتساب ويوتيوب، وهم لا يدركون أنها مادة تستعملها تلك الشركات لتوجيه رغباتهم، وبيعها لمن يهمه الأمر. وإذا كانت غاية "الأخ الأكبر" إخضاع الأوسيانيين بالحديد والنار وإلغاء التفكير حتى يضمن بقاءه في السلطة، فما هي غاية القائمين على وادي السيليكون.

كل توثيق شخصي أو معلومة بات سلعة تجارية

حربٌ من أجل استقلال الذات

محمود الرحبي
كاتب عماني

البحث عن خيارات غير تقليدية للتعبير عن الذات

كأنّما أصبحت حياتنا الخاصة في صراع من أجل الاستقلال. أتذكر هنا مقالا لأمبرتو إيكو تساءل فيه عن سبب حرص بعض المجرمين على ظهور وجوههم للتلفزيون، بدل الخجل من ذلك. وقد عقّب بأن المتهم أو المجرم أراد أن يستغلّ تلك اللحظة لكي يراه العالم، ظنا منه أن ما اقترف يستحق أن يعرف وعلى أكبر نطاق ممكن. فلم يعد يشعر بالخجل من أحد، والسبب أنه، بلا شك، سيجد ضمن هذا الحشد الذي سيراه معجبين به ومفتخرين بإمكاناته.. وكلنا نتذكر وجه ذلك السفاح الذي قتل المصلّين في "مسجد النور" بكريستن شيرش في نيوزيلندا وكيف كان يظهر بوقاحه، وكأنه طهّر العالم.

مدوّن آخر قام بخطوة مهمة في حياته، أشبه بعملية جراحية صعبة، إذ جرّب أن يحرم نفسه شهرا كاملا من الهاتف الذكي.. ألا يحمل معه هاتفا ذكيا. كان الموضوع مثيرا في بدايته ولكنه يمر بنفق طويل من المصاعب ومحطات ضياع استعان فيها بخبرته الحياتية لتخطّيها، قبل أن يعرف أن له حياة وخبرة لم يكن يلتفت إليها بسبب إكراهات هذا الهاتف الذكي الصغير، الذي كان – ودون شعور – يحمل حياته كاملة ويوجّهها الوجهة التي يريد.. ففي البداية عانى من صعوبة في إيجاد حيّز له في محيط الحياة. فلم يستطع أن يتعرّف حتى على الوقت، فقد نسي أن يأخذ معه ساعة يد. فالهاتف الذكي هو الذي كان يتكفل بكل ذلك. ولكنْ بمرور الوقت اكتشف أمورا كثيرة لم يكن يشعر بها إطلاقا بسبب الهاتف الذكي، الذي كان قد أودعه كل حياته تقريبا. ولكنْ بانصرام الأيام شعر بأنه يمتلك نفسه وقراراته دون تدخّل قوة هذا الهاتف؛ وبدأ بعد ذلك يحمل معه الهاتف ولكنْ في أوقات محددة. ثم تمكن، في نهاية المطاف، من السيطرة عليه وتحويله إلى آلة طيّعة، بعد أن كان العكس هو الصحيح، أي أنه كان هو آلية طيعة أو عبدا ضعيفا لنزوات هاتفه الذكي.

في حقيقة الأمر – أو هذا ما كان يُفترَض – لم يكن الهاتف سوى وسيلة ساخنة للتواصل مع الآخرين، لكنْ ما جدوى الآخرين وأنت بعيدٌ عن نفسك؟

نرى في وسائل التواصل الساخنة، وخاصة "فيسبوك"، أمورا قد تبدو عجيبة، من قبيل أن تجد أشخاصا يحرصون على إطْلاع "أصدقائهم" (الافتراضيين) على كل خطوة من خطوات حياتهم والحرص على استلام تعليقات منهم أو إشارات. هناك من يسافر ويبدأ في كل خطوة في سفره بإرسال الصور، أولا بأول، فلا تعرف إن كان بالحق مستمتعا أم شقيا.. يُجشم نفسه عبء الحرص على إرسال كل خطوة من رحلته للآخرين كي "يشاركوه". وحتى وجبات الطعام، الجلسات التي يُفترَض أنها حميمية وخاصة ودافئة مع عائلته أو أصدقائه، يحرص على أن ينشرها أمام الملأ. إنه لا يضيع الوقت دون أن يجمع عددا وافرا من اللايكات والتعليقات. لو لم يفعل ذلك لذهب اليوم في رأيه سدًى، وكأنه لم يقم بجولة في ذلك النهار، سيفتقده الآخرون. لن يعرفوا عنه كيف قضى ذلك اليوم. كثيرون كذلك حريصون على أن ينشروا كل تفاصيل يومهم أو رواية وكتاب بدأوا في قراءته. هنا سنقف أمام عنوان الكتاب أولا، فتنهال التعليقات واللايكات المشجّعة. ثم سيمضي الوقت مع إيراد فقرات من هذا الكتاب، الذي لن ينتهي دون مشاركة عبر الأثير من حشد وجمهور من البشر، لا أحد يعرف الوضعية التي كانوا فيها لحظة المشاركة. وربما لم ير صاحب الصفحة أو التعليق وجوههم الحية من قبل.

ولكنْ ثمة أمور مهمّة لم نترك لها وقتا للتأمل، وهي أن وسائط التواصل هذه ليست عيونا تعويضية، لسبب بسيط وواضح، هو أن الجمهور البعيد هنا ليس سوى طرف ثالث. فصاحب العلاقة هو الطرف الأول، والوسيط أو الصفحة هي الطرف الثاني، بينما الجمهور البعيد هو الطرف الثالث. ولكي أوضّح هذه الفكرة دعوني أورد بعض الأمثلة. فمثلا، حين قرأت رواية "بقايا اليوم" لكارو إيشي جيرو، الفائز بجائزة نوبل، في صفحات وصفه الساحر للريف البريطاني، شعرت بقوة الكلمات. ولكني حين شاهدت الفيلم تحولت إلى طرف ثالث.

فلم تستطيع كاميرا الفيلم أن تنقل إليّ الشعور الذي صوّره الكاتب مباشرة بكلماته. لقد صورتْ ذلك تصويرا خاطفا، بينما الكاتب خصّ كل نأمة أو مشهد بوقفة من الوصف والتأمل. كان في الحقيقة ينقل مشاعره كاملة بصدق شديد ويبثّ الكلمات تفاصيل من وجدانه جعلني أرى عبر الكلمات ما لم أستطع ملامسته عبر صورة الكاميرا. وهكذا بالضبط تفعل الصورة. فذلك الشخص الذي يصور وجبة طعامه ثم يرسلها عبر فيسبوك مثلا، هو من يتذوق وحده الوجبة، هو الوسيط الأول المباشر، بينما أنا البعيد – الطرف الثالث – لن ينالني من نصيب من تلك الوجبة سوى صورتها / صورها الباردة. لا يوجد من يصف لي تفاصيل شعوره. رغم أن الأفلام تحاول، عبر الحوار وأداء الممثل، أن تنقل لنا مشاعر الشخصيات، ومن أجل ذلك يبذل فريق عمل كامل جهودا لإيصال المشاهد إلى هذه الحالة؛ كما حدث مع فيلم "المواطن كين"، الذي أنتج في الأربعينات.

> ثمة أمور مهمّة لم نترك لها وقتا للتأمل، وهي أن وسائط التواصل هذه ليست عيونا تعويضية، لسبب بسيط وواضح، هو أن الجمهور البعيد هنا ليس سوى طرف ثالث

إن الفيلم الناجح في الحقيقة يكتسب نجاحه من مدى قدرته على أن يضع جمهوره في قلب الحقيقة، بنبضها الحار، لذلك أُوجدت الجوائز. فأفضل ممثل هو الذي استطاع أن ينقل لنا بمهارة تصرفات المطرب فريدي ميكروري، كما فعل الممثل المصري رامي مالك، أو انفعالات عيدي أمين، كما فعل الممثل الأميركي فوريست ويتاكر.

«مَشْيَخة» الميديا الجديدة وخطاب الكراهية

بومدين بوزيد
باحث وأستاذ جامعي جزائري

تُشكّل الهيمنة التقليدية سُلطَة تنظيمية وأخلاقية في مجتمعاتنا العربية والإسلامية وظلّت هذه المؤسّسات قائمة إلى اليوم رغم الصّدمة الحداثيّة مع حمْلة نابليون على مصر واستعمار مجتمعاتنا وظُهور الدّولة الوطنية المستقلّة التي تغذّت من "الأشكال التقليدية في ممارسة الهيمنة" لكن الانفجار العربي مع 2011 الذي صاحبه ظهور وانتشار الميديا / سوش أحدث خللاً كبيراً في العلاقات التقليدية بدءاً من هتك الحياة الشخصية للأفراد والجماعات، وأكثر عنصر محافظة وهي "المرأة" تعرّض لأن يكون مكشوفاً وممارست المرأة حرية في غُرف الدّردشة الإلكترونية ولو بأسماء وصُور مُستعارة، إنه "السُّفور الإلكتروني" الذي نعتبره مرحلة ثانية بعد السُّفور الذي دافع عنه قاسم أمين والحركات النّسوية في مصر ولبنان وتونس مع ظهور الحركات الليبرالية والعلمانية في الوطن العربي، كما أن "الجنس" صار متحررا من عقاله التقليدي ولم يعد يخضع للتنظيم الأسري المعهود، واستطاعت المواقع الإلكترونية أن تَنتهك الحُجب والسّتائر في أقصى الأماكن محافظة وتقليداً، هكذا تمّ اختراق السّلطة التقليدية التي يمثلها شيخ القبيلة أو شيخ الدّين، والأبوّة المهابَة، وتعتبر هذه الصدمة الحداثية الثانية أكثر تأثيراً على البنية الاجتماعية العربية.

حسب كاستلز (M Castells) في كتابه الشهير (المجتمع الشّبكي)، فإنّ "الشّبكة هي الرّوح الجديدة لهذا العصر"، تماشياً مع تعبير عالم الاجتماع ماكس فيبر الذي تحدّث عن روح الرأسمالية في نشوئها التاريخي المُرتبط بالبروتستانتية التي كانت تأويلاً جديداً للدّين مكّن من ظهور أفكار العقد الاجتماعي والحرية والديمقراطية. ويقول أيضاً "في عالم تدفّقات الثّروة والسّلطة والصُّور العالمية يُصبح البحث عن الهُويّة، فردية كانت أم جماعية، مُسندة أم مكتسبة، المصدر الأساسي للمعنى الاجتماعي"، تُصبح الهُويّة المصْدر الأساس، وأحياناً الوحيد للمعنى في فترة تاريخية تتسم بتدمير شامل للمُنظّمات، وبنزع شامل لشرعيّة المؤسّسات، واندثار أهم الحركات الاجتماعية، والتعبيرات الثقافية سريعة الزوال، ما عاد النّاس يؤسّسون المعنى استناداً إلى ما يفعلونه، بل اعتماداً على ما هم عليه، أو ما يظنّون أنّهم عليه، مجتمعاتنا تتّخذ على نحو متزايد بنية قائمة على تقابل ثنائي بيم الشّبكة والذّات.

نَشهد اليوم تطوراً رقمياً مَهيلاً سيمَكن وسائل "الاتصال الجديدة الذاتية" من زعزعة أساليب الهيمنة التقليدية للدّولة القومية واختطاف مُراهقينا وشبابنا منّا، أي من "قِيمنا الجَماعية" التي تحفظ الانسجام الاجتماعي وتحوّل دون تفتت العلاقات العائلية والرّوحية، صدمات التحديث والتطور لم تواجهها أمتنا بالاجتهاد والبحث عن "استراتيجية التبييء" – أي إنبَاته في بيئتنا وتأصيله –، وتكييفه مع واقعنا وخصوصيتنا الحضارية، وحَاصَرتنا الثنائيات وكَبّلت تفكيرنا ونمَطته بين الأصالة والمعاصرة، الماضي والحاضر، التقليد والحداثة، نحن والغرب.. إلخ.

وكنّا أمام تطور في استغلال الصُّورة والتّجنيد للعنف والإرهاب مع جماعة تُقاتل بالفكرة خارج "الأرض" ومعاني الوطن التقليدية من تحرير ومُقاومة.

إنّ "المجتمع الشّبكي" يعرف تدفقّات وثقافة افتراضية تتجاوز المفهومين التقليديين للمكان والزمان، وهما فضاء الهَيمنة وعَوامل الصّراع بالنّسبة إلى القوى المرتبطة بالشّكل المعهود للسّلطة، إذن سَوف نكون أمام نزاع مرير مع مُقاومين من نوع خاص لمشاريع الدّولة يَنتهجون أسلوب الدّعاية والتحكّم في الصّورة ونشر الخبر بالكيفية التي يريدون ويُنشئون عشرات المدوّنات التي تمسّ بالمعتقدات والمقدّسات والتّاريخ، ويتخذ بعضهم من "السّاحة الزرقاء" ميداناً للتجمع والتظاهر.

الميديا الجديدة وسلعنة الاهتمامات المختلفة

الصفحات 10، 11، 12، 13، 14
تنشر بالاتفاق مع «الجديد» الشهرية الثقافية اللندنية والمقالات كاملة على الموقع الإلكتروني